المشرق

سرّ الافخارستيّة في العاديّات المسيحية

بقلم الاب الفاضل الفس بطرس عزيز نائب بطريرك الكلدان بحلب

قد بلغ فنّ العاديّات المسيحيّة في الجيل التاسع عشر مبلغاً يقضي بالعجب. فمن زار اليوم الديماميس الرومانيّة والمتاحف الفاتيكانيّة واللاترانيّة وغيرها لا يتمالك من الاندهاش لدى رؤيته التصاوير والنقوش والكتابات العديدة المتنوّعة المنبعثة من عالم النسيان لتشهد على اعتقاد وعوائد واحوال المسيحيين في اجيال الكنيسة الاولى وذلك بانواع مختلفة فتارةً بتصاوير واضحة وطوراً بكتابات فصيحة واخرى برموز في غاية من الحكمة والدقّة تحرّى بها اصحابها بنيان المؤمنين الذين كانوا يفهمون اصطلاحها دون ان تبتذل تلك الجواهر الثمينة في اعين الغرباء عن الايمان الذين لم يروا فيها امراً ذا بال. وغاية ما يُستفاد من هذه الآثار الجليلة هي المطابقة التامّة بين ما كان يعتقده اولئك المسيحيون الاولون وما تعتقدهُ اليوم الكنيسة الكاثوليكيّة بحيث يستطيع كلّ ان يتحقق بانها هي الوارثة الشرعيّة للكنيسة الاولى المؤسسة من الرسل وفي الوقت عينه يقف على افك وافتراء من نسب اليها اختراع العقائد التي تعلّمها. وقد رأينا اليوم ان نأتي قراء المشرق بنموذج من هذا الفنّ الشريف وقد وقع انتخابنا على عقيدة الافخارستيّة وها نحن نوضح بهذه العجالة اتفاق الاولين في الايمان بالحضور الحقيقيّ الظاهر من تلك الآثار مع ما يعتقدهُ اليوم الكاثوليك في هذا الصدد

١ هلمّ بنا اذن ايها القارئ نتنزّل الى مقبرة القديس كَلِسْتوس من اشهر الديماميس الرومانيّة واقدمها. فاذا ما صرت الى حُجَر لوقينا فاعلم انك في الجيل الاول للنصرانيّة

وفي عهد الرسل ولا عجب ان تأخذك رجفة الاحترام تجاه هذه القدمية المهيبة كما اخذتنا نحن يوم اتاح لنا الحظ ان نزور هذه الاماكن المصبوغة بدماء الوف من الشهداء.

واوّل ما تجد صورةٌ غير مألوفة تشخص سمكة تسبح بالماء وعلى ظهرها قفّة من الخبز المستعمل حينئذٍ بالقداس وقدح يشفّ منهُ لون الخمر. فلعمري هل من رمز اوضح وهل من برهان اقوى. فانهُ لا بدَّ لك ان تعلم ان رمز السمكة لهُ شأن خطير في العاديات المسيحيَّة فترى اولئك المسيحيين يتنزّلون به بانواع مختلفة ولم يدعوا انآءً الّا ورسموهُ عليهِ وربَّما اتخذوهُ حرزاً لهم فعلّقوهُ في اعناقهم وما ذلك الّا لان السمكة كانت عندهم كنايةً عن المسيح نفسهِ فان اسمها في اليونانيَّة (ἰχθύς) يتكوّن من خمسة احرف كل منها هو رأس احدى هذه الكلمات الخمس في تلك اللغة اعني: يسوع (Ἰησοῦς) المسيح (Χριστός) ابن الله (Θεοῦ Υἱός). المخلص (Σωτήρ) فكأنَّما ارادوا ان يذكروا او يعبّروا عن شخص المسيح ولاهوتهِ صوّروا السمكة لتقوم مقامهُ قال اقليمس الاسكندري واوريجانس: ان المسيح يُدعى السمكة على سبيل الاستعارة (شرح متى خطبة ١٣). وان كان السمك اكثر من الواحدة فيشير الى المؤمنين المصطادين في مياه هذا العالم بشبكة الرسل والمولودين الولادة الجديدة في مياه المعمودية والمتغذين بلحم ودم السمكة الكبيرة الذي هو المسيح. فهل من رمز والحالة هذه احكم واوفق لبيان الاعتقاد بحضور المسيح بالذات تحت شكلي الخبز والخمر حضوراً حقيقيًّا من ان توضع سمكة حيَّة تحت الخبز والخمر

على ان هذا الرمز لم يكن معروفًا ومستعملًا في مدينة رومة فقط فان القديس أبرقيوس اسقف ايرابوليس في فريجيا في الجيل الثاني بعد ان ساح في بلاد سوريَّة وبين النهرين وزار رومة عاصمة الدين المسيحي كتب على الضريح الذي اعدَّهُ لنفسهِ (١ ما تعريب بعضهِ بالحرف: «في كلّ مكان وجدتُ (في اسفاري) رفاقًا اذ كان معي بولس فكنتُ اتبعهُ والايمان الذي كان يهديني حيثما ذهبت كان يهيّئ لطعامي في كل مكان سمكة من العين عظيمةً طاهرة أمسكتها عذراء عفيفة وهي توزعها على

١) وقد اكتشف على هذا الأثر الفريد سنة ١٨٨٣ احد علماء البروتستان السلّامة ويلم رمساي (Ramsay) واهداهُ جلالة سلطاننا الافخم عبد الحميد للبابا لاون الثالث عشر في مناسبة يوبيلهِ الخمسيني وهو محفوظ في المتحف الواتيكاني

الدوام ليأكل الاحباب . ولها خمر نفيس تعطيه ممزوجاً بالماء مع الخبز . . . من يفهم ذلك ويرافقني فليصلِّ على أبرقيوس (١

وجاء في كتابة اخرى وُجدت في مدينة اوتون (Autun) في فرنسة معاصرة لكتابة ابرقيوس في القدميَّة تحريض للمؤمنين « بان يتناولوا الطعام الحلو المعطى من مخلِّص القديسين وان يأكلوا بشهوة السمكة التي توضع على ايديهم »(٢ . طبقاً لعادة الكنيسة القديمة حيث كانت الجوهرة الالهية توضع على يد المؤمنين في تناولهم القربان الاقدس وهم كانوا يلتهمونها

٢ هيَّا بنا الآن الى مغاور مقبرة القديسة دومتيلاَّ المعاصرة هي ايضاً لزمان الرسل فهناك نشاهد سطلاً من الخليب مصوَّراً تارةً عن يمين الراعي الصالح وطوراً على ظهر حمل او فوق مائدة صغيرة مشخَّصة المذبح وبقرب السطل ترى خرافاً مع عصا الرعاية وربَّما تجد السطل محاطاً بغمام دليلاً على كونه شيئاً سماويّاً . والخليب كما لا يخفى كان في اصطلاح اولئك المسيحيين رمزاً عن الافخارستيَّة بما انها تحوي المسيح بالذات ونستدلّ على ذلك من الاباء الذين هم الترجمان الشرعي لمثل هذه الرموز . فاقليمس الاسكندري يفهم بالخليب الطفل الجميل الالهي اي جسد المسيح الموزَّع على المؤمنين . وقال ترتون اسقف ثيرونا : انّ ذاك الحمل الصغير الذي بصرفه النقي ستر عراكم هو الآن يقدّم لشفتيكم حليبهُ الميمون بوداعة فائقة . وصفرونيوس بطريرك اورشليم يقصّ على القديس تاردوروس بانهُ اذ كان يوماً قد خُطف عن حواسه رأى الشهيدين شنيميه يقدمان لهُ الخبز الحيي

(١ قد حاول كثيرون من اشهر المتقدمين بين البروتستانت البرهانيين ان يوهموا قوَّة البرهان الساطع من هذا الاثر الخطير على حقائق جمَّة تتمسك بها الكنيسة الكاثوليكية وينسبوه الى لهجة غير مسيحية فرجعوا بقفي حنين ولم تزل هذه الكتابة الثمينة سلطانة الكتابات المسيحية كما هو مكتوب عنها في المتحف الواتيكاني

πάντη δ' ἔσχον συνό[μιλους]
Παῦλον ἔχων ἐπό[ιμην], πίστις πάντη δὲ προῆγε
Καί παρέθηκε τροφὴν πάντη ἰχθὺν ἀπὸ πηγῆς
Παναμεμῴμη, καθαρὸν, ὃν ἐδράξατο παρθένος ἁγνὴ
Καί τοῦτον ἐπέδωκε φίλοις ἔσθειν διὰ παντός,
Οἶνον χρηστὸν ἔχουσα, κέρασμα διδοῦσα μετ' ἄρτον...

(٢ وهذا نصّ بعضها: Σωτῆρος ἁγίων μελιηδέα λάμβανε β[ρωσιν]
Ἔσθιε πινάκων, ἰχθὺν ἔχων παλάμαις.

وكأس المائدة المقدَّسة مملوءا حليباً الهيًّا. ومما نقرأ في قصَّة القديسة خالدة (Perpétue) شهيدة كنيسة افريقية التي كتبتها بيدها انها رأت الفردوسَ في رؤية عرضت لها بشكل بستان حيث الراعي الصالح قدَّم لها حليباً سماويًّا

ولا غرو فانهُ لما كان الحليب الطعام الذي تغذي به الام طفلها فهو يمثل جيدًا ذاك الطعام السماوي الذي اراد المسيح ان يغذي به نفوسنا لاسيَّما وان الحليب عبارة عن دمهِ الزكيّ. قال مكاريوس المنفاوي: لكي تعلم ان هذا (اي اكل جسد المسيح) ليس بامر غريب او مخوف فعليك ان تعتبر الطفل الصغير كيف انهُ لا يعيش ما لم يأكل لحم ودم امهِ وما طبيعة الحليب الَّا دم حقًّا

٣ وكثيرًا ما كان المسيحيون الاولون يعبّرون عن ايمانهم بالحضور الحقيقيّ برمز العجوبة تكثير الخبز اذ يرون بين الامرين علاقة شديدة كما يعلمنا الآباء. بل اشار المسيح نفسهُ الى ذلك في خطابهِ في كفرناحوم (يوحنَّا ف ٦) عن الافخارستيـة وهو يذكر اليهود بتلك الاعجوبة. وبين ظروف تكثير الخبز ورسم الافخارستيَّة مشابهـة جديرة بالاعتبار فان المسيح في كلا الحادثين رفع عينيـهِ الى السماء وبارك واعطى رسلهُ الخبز والسمك ليوزعوهُ على الجموع كما اعطاهم جسـدهُ ودمهُ تحت شكلي الخبز والخمر موصيًا اياهم ان يداوموا هذا الفعل حتى مجيئهِ الثاني كما يقول بولس. ففي هذه المشابهة برهان واضح على ايمانهم بالحضور الحقيقي والَّا فاي اعجوبـة تكون قد تمت في رسم الافخارستية حتى يمكنها ان تقابل باعجوبة تكثير الخبز ان لم يُفترَض ان المسيح حوَّل الخبز والخمر الى عين جسده ودمهِ كما يعتقد الكاثوليك

فبناء على ذلك من زار كنيسة القديس تروفيمس في مدينة ارل (Arles) في فرنسة يجد ناووسًا من الجيل الرابع فيهِ صورة المخلص يصنع اعجوبة تكثير الخبز وامامهُ مذبح وفوق المذبح السمكة الرمزيَّة التي معناها حضور المسيح في الافخارستية كما سبق القول — وفي مدينة مودينة من اعمال ايطالية اكتُشف على حَجر يرتقي الى الجيل الثالث منقوش عليهِ سبع خبزات وسمكتان اشارة الى تلك الاعجوبة ثم سمكتان في افواههما خبز اشارة الى الافخارستيَّة الموزَّعة للمؤمنين

وفي ناووس لاحد المسيحيين وُجد في اسكندرية مصر تُشاهد صورة المخلص بين الرسولين بطرس واندراوس وهما يقدّمان لهُ ارغفةً من الخبز وسمكتين وعند اوجل المسيح صورة

اثنتي عشر قفة من الخبز وفي احدى جهتي هذه الصورة ترى اشخاصاً جالسين على مائدة كُتب عليها باليونانية: « المؤمنون يأكلون اولوجية المسيح » ومعنى الاولوجية بركة وهي كناية عن الافخارستية في اصطلاح الكنيسة الاسكندرية. وفي الجهة الاخرى تُشاهد العجوبة تحويل الماء الى خمر في عرس قانا الجليل وهي ايضاً اشارة الى هذا السر. وكثيراً ما نعثر عليها في الديامس الرومانية ايضاً مقرونة بالعجوبة تكثير الخبز لكمال تشخيص الخبز والخمر المتحولين في الافخارستية الى جسد ودم المسيح بالعجوبة باهرة. ففي مقبرة كلستوس نجد عند قوائم المذبح السكة واجاجين الخمر المذكورة في عرس قانا الجليل ومعها قفف الخبز السبع

٤ وممّا يُرى في مقبرة كلستوس المذكورة على جدار احدى الحُجَر صورة موسى الكليم يحل سيور حذائه اذ يأتيهُ الامر بذلك من يد خارجة من الغمام تشخص حضور الله. وبجانب موسى صخرة يتدفق منها الماء يضربها شخص بالعصا الّا ان هذا الشخص ليس هو موسى مشترع بني اسرائيل اذ يختلف عن الصورة الاولى اختلافاً كلياً بالهيئة والثياب بل هو بطرس رئيس العهد الجديد كما يُستدلّ من المقابلة بصور اخرى لهذا القديس في تلك الآثار. ولا حاجة ان نذكر بان الصخرة هنا تقوم مقام المسيح بناء على قول الرسول بولس عن بني اسرائيل (١ قور ١٠: ٤): « كانوا يشربون من الصخرة الروحية التي كانت تتبعهم والصخرة كانت المسيح ». وفي الجدار المقابل ترى صورة الصخرة عينها يحدق بها بعض الاشخاص وسبع قفف من الخبز اشارة الى الاعجوبة المذكورة آنفاً. اما الصخرة فلا ينبعث منها ماء. وما سبب ذلك الّا لانها لم تعد تشخص المسيح كما كانت تشخصهُ في الصورة الاولى لوجود شيء آخر يقوم مقام الماء اعني الخبز الّا ان وجودها مع الخبز بعد ان استُخدمت قبلاً لتشخص المسيح يدلّ واضحاً على اعتقاد القدماء بالحضور الحقيقي في الافخارستية

٥ واكثر ما نجدهُ في هذا الصدد صورة ظهور المسيح وغدائه على ساحل بحيرة طبريّة مع سبعة من تلاميذه حيث جلس معهم على مائدة فيها خبز وسمك مشوي (يوحنا ف ٢١). ففي حجر ديامس كلستوس نرى صورة التلاميذ السبعة وامامهم سمكة مشويّة ولا نجد صورة المسيح معهم وذلك لانهم كانوا يريدون بالسمكة المسيح نفسهُ. ولكي تكون العلاقة بين هذا الغذاء والافخارستيّة اوضح فقد صوّروا حول

المائدة قفف الخبز . وفي نقوش اخرى من الديماس عينها بدلًا من المائدة نشاهد مذبحًا بثلاث قوائم وفوقهُ السمكة وحولهُ قفف الخبز السبع . واعلم ان السمكة المشويَّة على الجمر عند آباء الكنيسة رمز عن المسيح المضطرم بنيران المحبة الالهيَّة فوق مذبح قربانهِ . ونقرأ في كتاب احد آباء كنيسة افريقية لم يُذكر اسمهُ شهادةً فيها يدعو المسيح : « السمكة العظيمة الذي اشبع من ذنبهِ التلاميذ على الساحل ووهب ذاتهُ للعالم كلهِ سمكةً نتنوَّر ونتقوَّى بدواء احشائها » . يشير بذلك الى سمكة طوبيا (سفر طوبيا ف ٦)

٦ وقد كان قدماء المسيحيين يعبرون عن ايمانهم بالافخارستية برموز القيامة والخلود اذ ان العلاقة بينهما بديهيَّة كما قال الربُّ : « من يأكل جسدي ويشرب دمي لهُ الحياة الدائمة وانا اقيمهُ في اليوم الاخير » . ولهذا ففي مقبرة برتكستاتس نجد حجرًا للجيل الثاني او الثالث منقوش عليهِ طاووسان حول اناء ذي عروتين وعلى فم الاناء خبز بشكل الاقراص تُدعى الاكاليل المكرَّسة وكانت تُستعمل في القداس . ولمَّا كان الطاووس عند المسيحيين القدماء رمزًا عن القيامة والخلود فمعنى هذه الصورة هو ان الافخارستيَّة هي عربونها وعلَّتها ولا يخفى ما في ذلك من البرهان القويّ على اعتقادهم بالحضور الحقيقيّ . قال كيرلس الاسكندري في شرح الفصل السادس من انجيل يوحنا : « ولو كان الموت قد اخضع الجسد البشري الى ضرورة الفساد لكن من حيث ان المسيح هو فينا فسنقوم لا محالة لانهُ لا يُصدَّق بل هو من المحال ان الحياة لا تحيي من كانت فيهِ فكما اننا نطمر شرارة النار في تبن كثير لكي يحفظ زرع النار هكذا ربنا يسوع المسيح يودعنا الحياة بجسدهِ ويضعها داخلنا بمثابة زرع الخلود وهي تزيل كل فساد فينا (انتهى) . وهذا غني عن كل شرح

ثمَّ انهُ في احد جدران حُجر لوقينا تُشاهد صورة غنم حول اناء الافخارستي وفي الجدار المقابل لهُ صورة حمامتين تسرحان في بستان نُثرت فيهِ الزهور مكتنف بالاشجار فالغنم في عرف اصحاب هذا الفن هم المؤمنون في حال وجودهم في منتى هذا العالم . فيكون معنى هذه الصورة ان المؤمنين في هذه الحياة الفانية يتقوَّون بدواء الخلود اي الافخارستيَّة والحمامات هم المؤمنون عينهم في حال حصولهم على هذا الخلود والسعادة السرمديَّة بقوَّة ذاك القوت الالهي

١ السكة رمز من المسيح مع الخبز والخمر في مدفن كلستوس (القرن الاول او الثاني) ٢ سكتان وجدتا على ضريح نصراني في مودينة مع الخبز الافخارستي (القرن الثالث) ٣ حملٌ حامل الحليب رمز عن الافخارستيّة مع عصاة الرعاية في مدفن دوميتلا ٤ حمل آخر مع الحليب في مدفن التدسيين مرسلينوس وبطرس ٥ الخبز الافخارستي على المذبح مع صورة الكاهن وصورة الكنيسة مرموز عنها بامرأة تصلي (في مدفن كلستوس. القرن الاول او الثاني)

ووفقًا لهذا المعنى تجد في الديماس كؤوسًا قديمة من زجاج منها صحيحة ومنها مكسورة وفي اسفلها او على جدارها مكتوب : " اشرب فتحيا " او : « اشرب لتستطيع ان تحيا في الخير » او « الخيرات ». ومعلوم ان الآباء اليونانيين كانوا يلقبون الافخارستيا بالخير او الخيرات على سبيل الغلبة

ولا ريب في قدمية هذه الكؤوس اذ من الاكيد انها سبقت عهد البابا اوربانوس الاول اعني قبل سنة ٢٢٧ لأننا نعلم من التاريخ بان سالفهُ البابا زفيرينوس لكي يوافق الفقر مع اللياقة امر ان تكون الكؤوس المستعملة في القداس على الاقلّ من زجاج. فلمّا تبوأ بعدهُ اوربانوس المذكور السدّة البطرسيّة الفى استعمال الزجاج بناء على سرعة عطبه. اذن هذه الكؤوس هي من عهد البابا زفيرينوس اعني قبل السنة المذكورة آنفًا

واما اعتقاد الاجيال الاولى بالافخارستية من حيث كونها ذبيحة حقيقيّة فتستدلّ عليه : (اولًا) مما قيل حتى الان من امر المذابح والموائد وبين الذبح والقربان الحقيقي علاقة لازمة. (ثانيًا) من اننا نجد ما عدا ذلك مذابح كثيرة في الديماس باقية الى يومنا هذا وهذه كانت قبور الشهداء ومنها جرت السنّة في الكنيسة اللاتينيّة ان لا يُكرّس المذبح الّا بصخرة تحتوي على ذخائر الشهداء والقديسين. (ثالثًا) في حُجر ديماس كلستوس الخمس نشاهد صورة ماندة مثلثة القوائم هي مذبح التقريب وفوقها خبز وسمكة وبجانب المذبح صورة رجل وسولي موشّح برداء يمدّ يدهُ فوق الخبز والسمكة فهذه كما هو واضح هي صورة الكاهن الذي يُقيم رتبة السرّ ومن الجانب الآخر صورة امرأة واقفة ورافعة ذراعيها الى السماء. فهذه المصلّية هي رمز الكنيسة اعني جماعة المؤمنين الحاضرين الذبيحة وهم يصلون والسمكة هي المسيح بالذات حاضر في الذبيحة تحت الاشكال السريّة وقبالة هذه الصورة في الجدار الآخر صورة ابراهيم واسحق وخشب الوقود والحمل المذبوح عوضًا عن اسحق كل ذلك رمز عن ذبيحة المسيح في الافخارستيّة لان ذبيحة اسحق لم تكن فقط رمزًا مشخّصًا ذبيحة الصليب بل تشير ايضًا الى الذبيحة غير الدمويّة التي قرّبها المسيح في العشاء الاخير قبل ذهابهِ الى الصلب. قال يوحنّا فم الذهب : « ان ابراهيم لم يلوّث سكّينهُ بالدم ولا صبغ بهِ المذبح فهكذا (في الكنيسة) يوجد قربان يُقرّب بدون سفك الدم ومن كان مطلعًا على الاسرار

المقدسة يفهم جيدًا ما اقوله . ان ذبيحة اسحق كملت بدون سفك الدم لانها كانت صورة قربان مذابحنا »

ليت شعري ترى كيف يستطيع الانسان ان يتعامى تجاه هذا النور الساطع فوا اسفاً على من افضى به روح الغرض والكبرياء والحقد الى نكران حقيقة قد اضحت اجلى من الشمس في رابعة النهار فهل مثل هؤلاء يغشون الا نفوسهم

هذا وفي الختام اريد ان تلاحظ ايها القارئ انهُ لما قام في آخر الزمان أقوام اخذوا يتطاولون على كنيسة الله ناسبين الى نفوسهم التمسك بالقدميَّة وللكنيسة الزيتان عنها كانت العناية الصمدانيَّة قبل ذلك بخمسة عشر جيلًا قد اعدَّت تحت الارض تغتيدًا وخزيًا لهم بآثار و براهين رضيَّة مبرمة ولم ترَ جأت حكمتها ان تبرزها الى عالم الوجود الَّا في جيل يميل فيهِ البشر الى حب الفحص والتنقيب على القدميَّة عينها لعلَّهم يرعوون

وخلاصة الكلام قد حصلت اليوم الكنيسة الكاثوليكيَّة على علم لاهوتي جديد يثبت واحدة واحدة من عقائدها ويفحم من ينكرها افحاماً قاطعاً ولا بأس ان سمَّيتهُ . لاهوتًا حجريًا بما ان براهينهُ ليست من الكتب المقدسة ولا من شهادة آباء الكنيسة ولا من تحديدات المجامع ونحوها بل من شهادة صخور ومعادن صماء تنطق بلسان حالها فيسوغ لها والحالة هذه ان تضع على جانب تلك البراهين الاعتيادية وتحاج اخصامها بما قالهُ المسيح لليهود معانديهِ (لوقا ١٩ : ٤٠) : « اقول لكم انهُ ان سكت هؤلاء صرخت الحجارة » والسلام

مصفاة لصفق زيت الزيتون

لجناب الاديب الفاضل سليم افندي اصفر

انَّ في الزيتون كميَّة وافرة من الماء لا بُدَّ من افرازها بعد عصره . ولكن فصل الماء عن الزيت ربَّما كان بطيئًا مع ما يوجد بينهما من الفرق في الثقل النوعي . ولا نجهل انَّ البعض ينالون فصلًا تامًّا وسريعًا بين العنصرين وذلك بان يسخنوا معجون الزيتون بعد خروجهِ من تحت الرحى او وضعهِ في المعصرة بيد ان ذلك يبخس الزيت قدره